الفصل الثاني
علم المعاني نشأته وتطوره

علم المعاني هو أحد علوم البلاغة الثلاثة المعروفة: المعاني والبيان والبديع. وقد كانت البلاغة العربية في أول الأمر وحدة شاملة لمباحث هذه العلوم بلا تحديد أو تميز. وكُتُب المتقدمين من علماء العربية خير شاهد على ذلك، ففيها تتجاور مسائل علوم البلاغة ويختلط بعضها ببعض من غير فصل بينها.

وشيئًا فشيئًا أخذ المشتغلون بالبلاغة العربية ينحَوْن بها منحى التخصص والاستقلال، كما أخذت مسائل كل فن بلاغيٍّ تتبلور وتتلاحق واحدة بعد الأخرى. وظل الأمر كذلك حتى جاء عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري «٤٧١ هـ» ووضع نظرية علم المعاني في كتابه «**دلائل الإعجاز**» ونظرية علم البيان في كتابه «**أسرار البلاغة**» كما وضع ابن المعتز من قبله أساس علم البديع.

عبد القاهر الجرجاني إذن هو واضع أصول علمي المعاني والبيان ومؤسسهما في العربية، وقد جعل من مباحث كلا العلمين وحدة يمكن النظر فيها نظرة شاملة.

والعجيب أنه لم يحدث بعده تغيير يذكر في هذين العلمين، لأنه استطاع أن يستنبط من ملاحظات البلاغيين قبله كل القواعد البلاغية فيهما، وكان ذلك إيذانًا بأن تتحول تلك القواعد من بعده إلى قوانين جامدة. وقد فتن البلاغيون بعمله فراحوا يرددون كلامه ويقفون عنده لا يتجاوزونه إلى عمق أو ابتكار، كأنما البحث في البلاغة قد انتهى بعبد القاهر الجرجاني.

نقول ذلك لأن جهود البلاغيين من بعده انحصرت في جمع قواعد علوم البلاغة التي وضعها، وفي ترتيب أبوابها، واختصارها. وكان هذا الاختصار يصل أحيانًا من الغموض والصعوبة إلى حيث يحتاج إلى شرح يوضح غامضه، ويذلل صعابه فيقبل عليه الشراح، ومنهم من يتوسع في الشرح إلى الحد الذي يجعل الإلمام بحقائق العلم أمرًا عسيرًا. وهكذا وصلت البلاغة نتيجة لذلك إلى أقصى ما يمكن من اختصارات وأقصى ما يمكن من شروح.

ومن أوائل من اتجهوا إلى الاختصار والتخليص الفخر الرازي «٦٠٦ هـ» في كتابه «**نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**» فقد اختصر فيه كتابي «**دلائل الإعجاز**» و «**أسرار البلاغة**»

لعبد القاهر . وفي ذلك يقول : «**لما وفقني الله لمطالعة كتابي دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، التقطت منهما معاقد فوائدهما، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية**» .

وظهر بجانب الرازي وفي عصره عالم ضرب بسهم وافر في الفلسفة والمنطق وأصول الفقه والاعتزال واللغة البلاغية، وكان له تأثير خطير على البلاغة العربية .

ذلك العالم هو سراج الدين أبو يوسف بن محمد السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة، وصاحب كتاب «**مفتاح العلوم**» الذي جعله أربعة أقسام : قسمًا في علم الصرف، وقسمًا في علم النحو، وقسمًا في علوم البلاغة، وقسمًا في علم الشعر .

لقد سارت دراسة البلاغة قبل السكاكي على منهاج من عدم الفصل بين فنونها، لما في ذلك من خدمة الأدب وإمداده بأسباب القوة والجمال والوضوح . وكان لهذا المنهاج أثره وقيمته في إيقاظ المواهب وإرهاف الملكات الفنية لصناعة الأدب، وإقدار أصحابها على التذوق الأدبي والتمييز بين جيد الكلام ورديئه .

ذلك كان مسار الدراسات البلاغية قبل السكاكي : تنبيه إلى مواطن الحسن والجمال من الكلام، وشحذ لملكات صنّاعه الفنية، ومحاولات للكشف عن العناصر الجمالية في البيان العربي، وتربية لملكة الذوق، وتمكين كل ذي موهبة أدبية من أن يقرأ ويفهم، ويستحسن ويستقبح، ويوازن ويفضل، أو بعبارة أخرى من أن ينقد العمل الأدبي ويحكم عليه . في هذا المنهاج لم تكن محاولة الاهتداء إلى العناصر الجمالية في البيان العربي غاية في حد ذاتها بمقدار ما كانت وسيلة لشحذ الملكات، وتنمية الذوق وإرهاف الحس، وتكوين البلغاء والنقاد .

وعلى العكس من ذلك كان منهاج السكاكي في دراسة البلاغة، فقد أصّل منهاجه فيها على أسس منطقية حولت البلاغة من فن إلى علم له قواعده ونظرياته التي إن نجحت في تكوين طبقات من البلاغيين فقد فشلت في تكوين البلغاء .

ومن هنا كانت خطورة منهاج السكاكي الذي يعد في تاريخ البلاغة بداية طور الجمود في دراستها لقد خيل إليه أنه بمنهاجه المنظم المقنن يصلح من شأن البلاغة فإذا به من حيث لا يدري يفسدها ويسيء إليها .

وشهرة السكاكي في البلاغة مصدرها القسم الثالث من كتابه «**مفتاح العلوم**» فقد أفرد هذا القسم من كتابه لكلام عن علمي المعاني والبيان ولواحقهما من البلاغة والفصاحة

والمحسنات البديعية بنوعيها اللفظي والمعنوي.

فمن خلال مجهودات البلاغيين من قبله وبخاصة عبد القاهر الجرجاني «٤٧١ هـ» والزمخشري محمود بن عمر «٥٣٨ هـ» والفخر الرازي «٦٠٦ هـ» استطاع السكاكي تحقيق أمرين: أحدهما أن ينفذ إلى علم ملخص دقيق لما نثره أولئك في كتبهم من آراء، وكذلك لما توصل إليه هو من أفكار. وثانيهما أن يصوغ كل ذلك في صيغ مضبوطة محكمة، مستعينًا فيها بقدرته المنطقية في التعليل والتعريف والتقسيم والتفريع والتشعيب. وبهذا تحولت البلاغة في مفهومه أولاً وفي تلخيصه ثانيًا إلى علم بأدق المعاني لكلمة علم، فهي عنده قوانين صبت في قوالب منطقية جافة باعدت بينها وبين وظيفتها الأساسية من إمتاع النفس، وإرهاف الحس، وتنمية الذوق، والتمكين لذوي المواهب الأدبية من القدرة على الخلق والإبداع.

وقد عرّف السكاكي علم المعاني بقوله: «**إنه تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره**».

وهذا التعريف وحده نموذج لتأليف السكاكي الذي أفرغه في أسلوب علمي منطقي بعيد كل البعد عن جلاء العبارة ووضوح التأليف عند من تقدموه من البلاغيين.

فهو مثلاً في هذا التعريف لا يقصد «**بتراكيب الكلام**» مطلق تراكيب، وإنما يقصد تراكيب البلغاء لا التراكيب الصادرة عمن لا حظ لهم من البلاغة، وهو كذلك يقصد «**بخواص التراكيب**» ما يسبق إلى الفهم منها عند سماعها لكونها صادرة عن البليغ، كما يقصد أيضًا «**بالإفادة**» من قبل ذي الفطرة السليمة.

فالتعريف كما ترى لا يجود بمعناه في سهولة ويسر، وإنما هو يعني طالبه عناءً شديدًا حتى يصل إليه، إن وصل. ومن أجل هذا كثر شرّاح السكاكي وملخصو بلاغته كما سنبين فيما بعد، وكأن البلاغة عند كل من تصدى لشرح أو تلخيص ما ورد عنها في كتاب «**مفتاح العلوم**» للسكاكي أقول: كأن البلاغة عند أولئك الشراح والملخصين أصبحت تنحصر في أمرين: أحدهما الالتزام ببلاغة السكاكي على أنها ختام البلاغة والذروة التي ليس بعدها مجال لمستزيد أو مجتهد وثاني الأمرين إظهار المقدرة والبراعة في شرح كتاب «**المفتاح**» أو تلخيصه.

obeikandl.com

ويمكن حصر موضوعات علم المعاني التي وردت في القسم الثالث من كتاب «المفتاح» للسكاكي على النحو التالي:

١- الخبر والطلب.

٢- الإسناد الخبري واختلافه باختلاف السامع من حيث خلو الذهن، أو الشك، أو الإنكار.

٣- الإسناد، وبيان أحوال المسند إليه والمسند، من حيث: الحذف والذكر، والتنكير والتعريف، والتقديم والتأخير، والتخصيص والمقتضات البلاغية لذلك.

٤- الفعل ومتعلقاته.

٥- الفصل والوصل.

٦- الإيجاز والإطناب، وبيان كيف أنهما نسبيان.

٧- القصر، وأنواعه، وطرقه.

٨- الطلب، ويندرج تحته:

أ- مقدمة عن الطلب مستمدة من كلام المناطقة عن التصور والتصديق وما يحصل في الذهن، وما يحصل في الخارج.

ب- أنواع الطلب الخمسة: التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء، وأدوات كل نوع منها، ووظائفها.

ج- الأغراض البلاغية أو المعاني أو المعاني الإضافية التي يخرج الطلب عن معانيه الأصلية من أجل الدلالة عليها، وذلك مثل: التعجب، والإنكار، والاستبطاء، والنفي.

ولما كانت عنايتنا في هذا البحث مقصورة على علم المعاني وحده، فتلك هي موضوعاته كما وردت في كتاب «مفتاح العلوم» للسكاكي، أو بمعنى أدق كما وردت في القسم الثالث منه، والذي تكلم فيه عن علمي المعاني والبيان، ولواحقهما من البلاغة والفصاحة، والمحسنات البديعية بنوعيها اللفظي والمعنوي.

وكما قلت آنفًا لقد نال هذا الكتاب شهرة فائقة في ميدان البلاغة بالذات، ولقد فتن العلماء به إلى الحد الذي جعلهم ينسون أنفسهم وينكرون ملكاتهم. ولهذا ظلوا قرابة خمسة قرون ابتداء من القرن السابع الهجري عاكفين على شرحه وتلخيصه، وكأنه لم

obeikandl.com

يؤلف في البلاغة العربية غير هذا الكتاب الذي استأثر باهتمامهم وعنايتهم.

وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر هنا بعض من توافروا على كتاب «**مفتاح العلوم**» للسكاكي شرحًا وتلخيصًا. فممن عنوا بشرحه:

١- قطب الدين محمود الشيرازي «٧١٠ هـ» شرحه في كتاب سماه «**مفتاح المفتاح**».

٢-محمد بن مظفر الخلخالي في كتاب سماه «**شرح المفتاح**».

٣- السيد الشريف الجرجاني «٨١٦ هـ» شرح القسم الثالث من المفتاح.

٤- ابن كمال باشا «٩٤٠ هـ» ألف شرح المفتاح.

وممن عنوا بتلخيصه:

١- بدر الدين بن مالك «٦٦٨هـ». اختصره في كتاب سماه «**المصباح في اختصار المفتاح**»، وقد نال هذا المختصر شهرة واسعة لدى طلاب البلاغة في بلاد المغرب.

٢- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني «٧٣٩ هـ»، وقد اختصره في كتاب سماه «**تلخيص المفتاح**».

٣- عبد الرحمن الشيرازي «٧٥٧ هـ» وسمى تلخيصه لكتاب المفتاح «**الفوائد الغياثية في علوم المعاني والبيان والبديع**».

ولعل أوسع هذه الكتاب أو التلخيصات شهرة بين المشارقة في كل العصور هو كتاب «**تلخيص المفتاح**» في المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني الآنف الذكر.

فهذا الكتاب قد تنوع اهتمام العلماء به، فمنهم من شرحه، ومن نظمه، ومن لخصه.

فممن شرح:

١- الخطيب القزويني نفسه، فقد وضع له شرحًا سماه «**إيضاح التلخيص**» قصد به أيضاح ما أبهم واستغلق منه كما ضم إليه بعض ما فاته في التلخيص مما تضمنه المفتاح، وبعض زيادات أخرى من كتابي عبد القاهر «**دلائل الإعجاز**» و «**أسرار البلاغة**».

٢- محمد بن مظفر الخلخالي «٧٤٥ هـ» وضع له شرحًا سماه «**مفتاح تلخيص المفتاح**».

٣- بهاء الدين السبكي «٧٧٣ هـ» وضع له شرحًا سماه «**عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**».

obeikandl.com

٤- محمد بن يوسف ناظر الجيش «٧٧٨ هـ» وضع له شرحًا سماه «شرح تلخيص القزويني».

٥- محمد البابرتي «٧٨٦ هـ» وشمس الدين القونوي «٧٨٨هـ» وضع له كل منهما شرحًا سماه «شرح تلخيص المفتاح للقزويني».

٦- سعد الدين التفتازاني «٧٩٢هـ» وضع له شرحين: الشرح الكبير، والشرح الصغير للتلخيص.

٧- ابن يعقوب المغربي «١١١٠ هـ» صاحب كتاب «مواهب المفتاح في شرح تلخيص المفتاح».

وممن نظموه شعرا:

خضر بن محمد مفتي أماسية، وسمى نظمه «أنبوب البلاغة»، وجلال السيوطي، وسمى نظمه «عقود الجُمان»، ثم عاد فوضع لمنظومته شرحًا، وعبد الرحمن الأخضري، وسمى نظمه «الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون».

وممن قام باختصاره:

عز الدين بن جماعة، وأبرويز الرومي، وزكريا الأنصاري.

وتلك الشروح والتلخيصات والمنظومات إن دلت على شيء فعلى جمود الفكر البلاغي وعقمه منذ عصر السكاكي. نقول ذلك لأن كل ما ظهر من شروح وتلخيصات لكتاب المفتاح لا تخرج عن كونها ترديدًا وتكرارًا لمادته، ومحاولات قصد بها الإيضاح بالشرح أو التقريب والتبسيط عن طريق الإيجاز والتلخيص والنظم، وإذا هي من حيث لا يريد ولا يدري أصحابها قد زادت المفتاح صعوبة على صعوبة.

وإنه ليخيل لمن يقرأ هذه الشروح والمتون أن واضعيها لم يكونوا علماء في البلاغة بمقدار ما كانوا معلمين لها، يذكرون الكلمة أو العبارة من الأصل ثم يتبعونها بشرح المراد منها، ولا يتجاوزون ذلك. كلهم في ذلك سواء، وصدق فيهم قول بهاء الدين السبكي: «يتناولون المعنى الواحد بالطرق المختلفة، ويتناوبون المشكل والواضح على أسلوب واحد... لا يخالف المتأخر المتقدم إلا بتغيير العبارة، ولا يجد له على حل ما استشكل على غيره جسارة... قصارى أحدهم أن يعزو أبياتًا من الشواهد لقائليها، ويوسع

الدائرة بما لا يقام له وزن من تكميل ناقصها، وإنشاد ما قبلها وما يليها . . . فلو نطق «التلخيص» لتلا ما جئتم به؟ «هذه بضاعتنا ردت إلينا» .

فهذه الكتب الكثيرة التي أريد بها خدمة البلاغة والنقد قد عجزت عن أن تعلم نقدًا أو بلاغة، وهي إن دلت على شيء فعلى جمود عقول أصحابها وفقدانها القدرة على التجديد والابتكار .

والمقارنة بين ما كانت عليه البلاغة العربية في العصور الأولى وما صارت إليه في العصور المتأخرة وترينا كيف ازدهرت وتوهجت شعلتها على أيدي علمائها الأوائل، ثم كيف جفّت وخبت شعلتها على أيدي المتأخرين منهم .

وقد ظل أمرها هكذا جمودًا على جمود حتى قُيّض لها من أدباء العربية وعلمائها في العصر الحديث من يعملون على إحيائها ونهضتها .

* * *

obeikandl.com